حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به - العدد الاول - شهر رمضان - ١٤٣٢هـ / آيار - ٢٠١١م

١

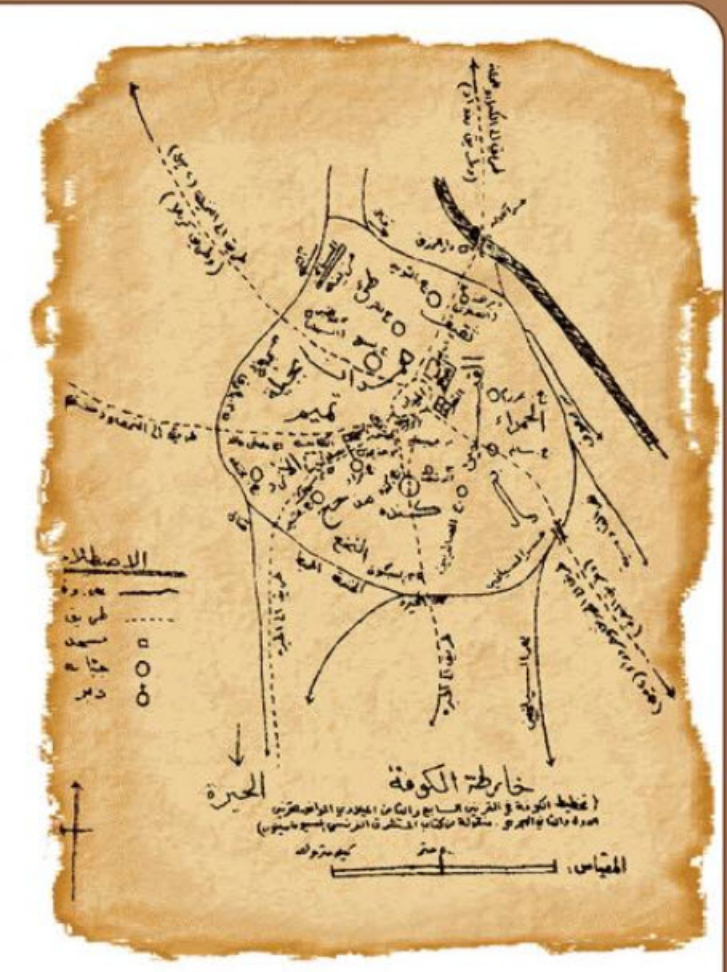

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

جانب من النشاط العلمي في الكوفة
حتى نهاية القرن الثالث الهجري

الأستاذ الدكتور عبد الحسين الفتلي
كلية الآداب - جامعة بغداد

شهدت الكوفة بعد تمصيرها نشاطاً علمياً كبيراً لا يقل عن النشاط السياسي والديني. وقد ساعد على ذلك نزول القبائل العربية فيها مثل كندة ومذحج وطيء والأزد. وهمدان، وقيس عيلان. وربيعة. وأياد. وقضاعة. وقبائل سواها[١]... كما ساعد موقعها التجاري الممتاز والأراضي الزراعية وتوفير وسائل العيش الوفير على كثرة مستوطنيها. إذ بلغت دور العرب وحدهم ما يقرب من ثمانين ألف دار في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجريين[٢]... هذا إلى جانب الفرس والسريان النساطرة الذين كانوا في الحيرة والأنباط إضافة إلى معهد الكوفة الذي كان من أكبر معاهد العلم فيها، فلم يقتصر على العبادة وإلقاء الخطب حسب بل كان مركزاً لفروع المعرفة المختلفة. تعتمد فيه حلقات لتعليم القرآن وقراءته وتفسيره وفقهه، وللحديث وإسناده.. وقد تنوعت حلقات الدرس فيه فاستمرت حلقات لقراء القرآن ودراسة قراءته والتفقه في آياته وأحكامه وحلقات الحديث وروايته وعلم رجاله[٣]...

ونمت حلقات الدرس الأدبي واللغوي والنحوي. فكان للقراء حلقة. وللشعراء والأدباء اجتماعات يدونون فيها الشعر وينشدونه[٤]...

قال الزبيدي: إن الفراء أملى على أصحابه كتاباً في القرآن في المسجد في ألف ورقة[٥]...

وذكروا أن الكميت بن زياد وحماد الراوية اجتمعا في مسجد الكوفة فتذاكروا أشعار العرب وأيامهم وتنازعا تناظرا وتساؤلا[٦]... إضافة إلى دور العلماء والأمراء والوزراء والأغنياء من أهل الكوفة في تشجيع العلم وأصحابه، من هذه النظرة السريعة نستطيع أن نرى بأن الكوفة قد شهدت منذ فجر تأسيسها تلاقح الثقافة العربية ممثلة بالعناصر اليمنية والثقافات الأجنبية، ولكن هذه الثقافات لم يقدر لها أن توجه الكوفة توجيهاً عقلياً محضاً، إذ ظلت -في العموم- تؤمن بالغيبيات، وإن ظهرت فيها موجات الزندقة -تميل إلى الروح العربية-.

ويرى الدكتور يوسف خليف أن الديمقراطية العربية ظلت مسيطرة على نحاة الكوفة مما وجههم إلى أن يحترموا النصوص العربية، ويأخذوا حتى بالشاذ منها فيقيمون عليه[٧]...

وهذا ما جعل بعضهم يسمي عقلية الكوفة بالعقلية المزدوجة التي تميل إلى العربية حيناً وتنبذه حيناً آخر، كأنها تنظر إلى حياتها العربية الأولى[٨]...

وإذا كان هذا البحث يتناول جانباً من الحياة العلمية في الكوفة فسوف يقتصر فيه على علماء النحو واللغة والقراءات ونظرة سريعة لحياة الأدب في القرون الثلاثة الأولى من نشأتها، مع الإشارة إلى أن النحو في الكوفة لم يتأخر كثيراً في نشأته عن نحو البصرة، فالعصران كلاهما في بلد واحد ثم إذا كانت نشأة النحو تعود إلى عوامل دينية أو سياسية أو حضارية، فالدين في البصرة والكوفة هو الإسلام وسكانهما عرب مسلمون، لكن الذي جعل البصرة -كما يقول المتقدمون والمحدثون- سابقة للكوفة في مجال النحو هو وجود علماء مشهورين أشهرهم الخليل بن أحمد الذي كانت تنسب إليه كل الأمور التي تدل على التجديد والإعجاب. وقد تكون الكوفة تأخرت قليلاً في هذا المجال. لكن الذي يؤخذ على هذه الأخبار هو أن علماء الكوفة أخذوا النحو عن البصريين. فمعاذ بن مسلم الهراء المتوفى سنة ١٨٧هـ[٩] كان نحوياً كبيراً في

(١) تاريخ الكوفة ١٨٠.
(٢) معجم البلدان ٢٩٢/٢.
(٣) المدارس النحوية: ١٤٥ د.الحديثي.
(٤) المدارس النحوية: ١٤٥.
(٥) طبقات الزبيدي: ١٤٥.
(٦) تاريخ بغداد: ٣٢٤/٣.
(٧) حياة الشعر في الكوفة: ٢٦٨.
(٨) الشعر في الكوفة ٢٧ الاعرجي.
(٩) أنباء الرواة ٢٨٩/٣.

الكوفة، ومعنى أنه مات بعد سيبويه بسبع أو ثماني سنوات فكلاهما عاش في مدة متقاربة. فأين هي المائة سنة التي سبقت بها البصرة الكوفة في ظهور علم النحو، أكبر الظن أنها أخبار لا تمت إلى الحقيقة بصلة، ثم إن إطلاق اسم مدرسة على البصرة والكوفة في وقت متقارب. ألا يعني هذا أن النحو نشأ في المدينتين معتمداً على علماء كل منهما.

ربما تأثر نحاة الكوفة بالبصريين، ولكن ليس بالدرجة التي تجعل البصرة سابقة بهذا العلم لعشرات السنوات. وقد يكون لاهتمام المؤرخين بالنحو البصري يعود إلى أن علماءها الأوائل لم يغادروها كما فعل علماء الكوفة أمثال الكسائي والفراء وأبي عمرو الشيباني، وابن الأعرابي، فإنك قد لا تجد فيهم ما عاد يربطه بالكوفة غير النشأة، إذ اجتذب هؤلاء بريق بغداد مسرورين إلى تقريب الخلفاء وتكريمهم إياهم، حتى أن رواتها الكبار قد هجروها إلى بغداد أيضاً على الرغم من أن هجرتهم لا تمنع أن يكون الشعر مادة حديث أهل الكوفة اليومي، بما لها من سابقة في الاهتمام بالرواية، كان المفضل الضبي قد جمع مروياته في المفضليات. وكان حماد الراوية أول من جمع المعلقات السبع[1]...

على أن غياب هؤلاء جميعاً لا يمنع أن يكون في الكوفة مؤدبون من هم لغويون ونحاة يأخذ عنهم البيان علم العربية في مكاتبهم المنتشرة في محلات الكوفة أو أن تكون كتب النحاة واللغويين مما يبيعها الوراقون ويتناقلها المتأدبون[2]...

ونحن لا نتفق مع ما ذكره أحمد أمين من أن الكوفة تأخرت عن البصرة في مضمار النحو واللغة وتدوينهما واختراع القواعد لهما منذ أن ظهر بها ابن أبي إسحاق الحضرمي المتوفى سنة ١١٧هـ ثم تلميذه عيسى بن عمر الثقفي المتوفى سنة ١٤٣هـ اللذان يعدان أول نحاة البصرة يطمئن إليهما الباحثون، وقد سبقت البصرة الكوفة بنحو مائة عام حتى أتت الأخيرة بعد تؤسس مذهباً خاصاً يضاهي مذهب البصرة وينازعه ويتعصب لكل علماؤه[3].. وقديماً ذكر ابن النديم في تعليله لتقديم البصريين على الكوفيين أنه فعل هذا لأن علم العربية أخذ عن البصريين[4]... لكنه لم يحدد المدة وهو الأقرب إلى أهل ذلك العصر، فلو كانت المدة مائة سنة لما أغفلها عالم كبير مثل ابن النديم وهو يذكر تاريخاً لعلماء كلتا المدينتين والأقرب إلى المنطق المقبول، أنه في الوقت الذي كان الخليل بن أحمد يضع فكرة المعجم وعلم العروض وأصول النحو كانت الكوفة تعول على أستاذها الأول أبي جعفر الرؤاسي الذي كان البصريون يرونه مطرح العلم ليس بشيء[5].. والذي أنكر عليه الكسائي الكوفي عدة مسائل وخطّاه فيها. اعتماداً على ما سمعه من العرب[6].. وقضية مطرح العلم وتخطئه الكسائي له بعيدان عن التصديق، ربما أوردتهما المنافسة الحادة بين المدينتين. فليس معقولاً أن أستاذاً كبيراً يعوّل عليه الكوفيون مطرح العلم ليس بشيء، وليس معقولاً كذلك أن تلميذاً فاضلاً مثل الكسائي ينكر على أستاذه عدة مسائل ويخطئه فيها.

وقضية أخرى في نشأة النحو في البصرة دون الكوفة تلك الرواية التي ذكرها ابن الانباري من أن الخليل بن أحمد يرسل إلى الرؤاسي طالباً كتابه ليطلع عليه[7]..

فعالم جليل مثل الخليل يطلب كتاباً يريد معرفة ما فيه من عالم كوفي، لا بد أن يكون هذا العالم على درجة من المعرفة تضاهي معرفة الخليل أو دونها بقليل، ثم أن ابن النديم قد وضعه على رأس نحاة الكوفة[8]..

ويذكر ثعلب وهو من أهل الكوفة المشهورين في القرن الثالث الهجري أن الرؤاسي أول من وضع كتاباً في النحو[9].. وربما يكون الرؤاسي نفسه قد تأثر بالبصريين الأوائل أمثال عيسى بن عمر ويونس بن حبيب أستاذا الخليل[10].. ثم مضى يضيف حتى أتم مجموعة غير قليلة وصلت إلينا أسماؤها في كتب الطبقات[11]...

وهي مجموعة يبدو أنها كانت من المصادر التي اعتمد عليها سيبويه في تأليف كتابه، فهم يقولون أن سيبويه إنما ذكر في كتابه«الكوفي» فأنما يعني به أبا جعفر الوؤاسي[12]..

فهل بعد هذا شك في أن النحو الكوفي كان متقدماً كقدم النحو في البصرة. مادام كتاب سيبويه هو أول كتاب في النحو جمع آراء البصريين السابقين يذكر فيه جانباً من نحو الكوفيين مثلاً بعالمهم الكبير أبي جعفر الرؤاسي الذي جاء بعده تلميذاه المشهوران الكسائي المتوفى سنة (١٨٢هـ) والفراء المتوفى سنة (٢٠٧هـ) وهما اللذان دعما قواعد مدرسة الكوفة النحوية ورمما بنيانها[13]..

(١) أنظر: نزهة الالباء: ٢٣، وفيات الأعيان ٤٤٨/١ وحياة الشعر في الكوفة ٢٦٨.
(٢) انظر الأغاني ٧٦٨/١٥ وحياة الشعر في الكوفة ٢٦٩.
(٣) ضحى الإسلام ٢٨٣/٢.
(٤) الفهرست: ١٩٦.
(٥) المزهر ٢٤٨/٢.
(٦) نزهة الالباء ٦٦.
(٧) نزهة الالباء ٦٦، وبغية الرعاة ١/ ٣٣.
(٨) الفهرست:
(٩) نزهة الالباء٦٥، والمزهر ٢٤٨/٢.
(١٠) المزهر ٢/ ٢٤٩.
(١١) نزهة الالباء ٦٦ وحياة الشعر في الكوفة ٢٦٣.
(١٢) المزهر ٢/ ٢٤٨، وحياة الشعر في الكوفة٢٦٣.
(١٣) حياة الشعر في الكوفة ٢٦٢.

وإذا استثنينا معاذاً الهراء المتوفى سنة (١٨٧هـ) فأن الكسائي هو الشخصية النحوية الثانية التي أسهمت في نشر النحو الكوفي فقد تخرج في أول أمره في مدرسة الكوفة حيث تلقى النحو عن الرؤاسي[١]... عن معاذ الهراء عم الرؤاسي وزميله في الأستاذية الأولى لمدرسة الكوفة، لكن المترجمين لم يذكروا له كتاباً في النحو، ولم يعرفوا له مصنفاً فيه، إلاّ أنهم قالوا عنه أنه هو الذي وضع علم الصرف[٢].. معنى هذا أن دور معاذ الهراء في نشأة النحو لا يرقى إلى لاحقيه الرؤاسي والكسائي يومذاك.

ثم يأتي الكسائي فيكتسب شهرة كبيرة في ميدان القراءات والنحو، وربما كانت هذه الشهرة راجعة إلى أنه أحد القرّاء سبعة لا إلى النحو كما يقول القدماء والمحدثون -لأن الذين ترجموا له يذكرون أنه لم يتعلم النحو إلاّ كبيراً- ولم يتعلمه إلا بسبب لحنة لحنها فعيّر بها[٣] لكن الباحث لا يعرف كم هو عمره عندما تعلم النحو واستطاع أن يصل إلى درجة الأستاذية وأنه كان عالم أهل الكوفة وإمامهم غير مدافع[٤].. ثم إن قول ثعلب عنه أنهم أجمعوا على أنه أكثر الناس كلهم رواية وأوسعهم علماً الكسائي[٥].. هذا القول مبالغ فيه إن لم نقل فيه تعصب ظاهر لابن مدينته الكوفة، كذلك لا تخلو الأخبار الأخرى عنه من تعصب من أن الكوفة لم تشبع رغبته وعطشه فرحل إلى البصرة حيث لقي الخليل بن أحمد وجلس في حلقته. ولم يعد له هم غير البصرة والخليل[٦].

ولم يكتف بهذا بل خرج في بعثة دراسية -كما يقول الدكتور يوسف خليف- إلى البادية المصدر الأصلي للعربية وأنفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب غير ما حفظه[٧]. وهناك اضطراب في الروايات عن علم الكسائي في النحو ففي الوقت الذي ذكر فيه أنه كان أعلم من أخذ عن سيبويه[٨].. كان يسأل سيبويه كيف يقول: قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور. فإذا هو أو كأنما هو إياها. فقال سيبويه: فماذا هو هي ولا يجوز النصب. فقال له الكسائي لجلست[٩].. أيعقل مثل هذا الخبر أن هناك إنسانا يأخذ العلم من كتاب رجل علماً ويتقنه احتراماً لذلك الرجل، ثم يمتحن صاحبه ويخطئه أمام خليفة المسلمين وأمام العرب الفصحاء. أي عالم هذا الذي يسخر من رجل أفنى عمره في حفظ ما قالته العرب في كتاب كان يسمى«قرآن النحو» تعظيماً له وأستعظاماً لما فيه، إضافة إلى ذلك فأن الكسائي أحد القراء السبعة الذين تأدبوا بأدب القرآن وبتعاليم نبيه الذي إنما بعث ليتم مكارم الأخلاق.. ومع كل ما نعت به الكسائي من نعوت في علم النحو وكل ما ذكر عنه من أخبار المناظرات فأن ما خلفه من مصنفات لا تدل على شخصية نحوية لها مكانتها المرموقة. فكتبه هي كتاب معاني القرآن وكتاب مختصرة في النحو، وكتاب القراءات، وكتاب العدد وكتاب النوادر الكبير. وكتاب النوادر الأوسط وكتاب النوادر الأصغر وكتاب اختلاف العدد. وكتاب الهجاء. وكتاب مقطوع القرآن وموصله، وكتاب المصادر. وكتاب الحروف. وكتاب أشعار المعاباة وطرائقها. وكتاب المكنى بها في القرآن[١٠] فكان النحو في هذه الكتب صغير لا يذكر. وهذا يؤيد قول تلميذه الفراء أنه تعلم النحو على كبر... بعد أن أرشدوه إلى معاذ الهراء فلزمه حتى أنفذ ما عنده[١١]... ومعاذ الهراء ليس بالعالم المشهور في علم النحو كالخليل أو سيبويه وأمثالهما.

فشهرة الكسائي الواسعة بين علماء الكوفة متأتية من كونه أحد قراء الكوفة المعروفين. وقد سبقه اثنان منهم من القراء السبعة وهم عاصم بن أبي النجود... وحمزة بن حبيب الزيات. فهو أمام أهل الكوفة في القراءات، وكانت علمه وصناعته كما قال ابن الجزري لأنه مارسها وهو صغير[١٢].. وكان ابن معن يقول: ما رأيت بعيني هاتين أصدق لهجة من الكسائي، وقد عرف عنه أنه كان يتخيّر القراءات فكان يأخذ من قراءة حمزة بعضها وبترك الآخر. ويختار قراءة متوسطة غير خارجة من آثار من تقدم الأئمة[١٣].. غير أن مادة قراءته واعتماده في اختياره عن حمزة[١٤]...

ويبدو هذا الأخذ عن حمزة كان مبكراً في حياته. فقد ذكر المرزباني عن عبد الله بن جعفر عن أبي قادم عن الكسائي قال: حججت مع الرشيد فقدمت لبعض الصلوات فصليت فقرأت ﴿ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ﴾[١٥] فأملت«ضعافاً» فلما سلمت ضربوني بالنعال والأيدي وغير ذلك حتى غشي علي واتصل الخبر بالرشيد فوجه بمن استنقذني فلما جئته قال لي: ما

(١) المزهر ٢٤٨/٢.
(٢) نزهة الالباء ٨٣، والمزهر٢٤٨/٢. وحياة الشعر في الكوفة ٢٦٣.
(٣) نزهة الالباء٨٢، ومعجم الأدباء٥/ ١٨٤.
(٤) المزهر٢٥٤/٢.
(٥) المزهر٢٥٤/٢.
(٦) نزهة الالباء٨٣ ومعجم الأدباء١٨٤/٥.
(٧) حياة الشعر في الكوفة ٢٦٣ والخبر منصرف فيه موجود في نزهة الالباء٨٣، ومعجم الأدباء ١٨٤/٥.
(٨) نزهة الالباء:٨٤.
(٩) معجم الأدباء ٥/ ١٩٢.
(١٠) انظر: معجم الأدباء ٢٠٠/٥.
(١١) معجم الأدباء ١٨٤/٥.
(١٢) غاية النهاية٥٣٧/١.
(١٣) غاية النهاية٥٣٨/١ ومدرسة الكوفة ٥٦.
(١٤) النشر في القراءات للدائي: ١٠.
(١٥) النساء: ٩.

شأنك؟ فقلت له: قرأت لهم ببعض قراءة حمزة الرديئة ففعلوا بي ما بلغ أمير المؤمنين، فقال: بئس ما صنعت ثم ترك الكسائي كثيراً من قراءة حمزة[1]..

وقيل: أن الكسائي كان أوحد الناس في القرآن الكريم، فكانوا يكثرون عليه حتى لا يضبط الأخذ عنهم فيجمعهم في مجلس ويجلس علي كرسي، ويتلو القرآن من أوله إلى آخره وهم يسمعون ويضبطون عنه[2].. وقال خلف بن هشام: كنت أحضر قراءته والناس ينقطون مصاحفهم على قراءته[3]..

فعالم هذا شأنه في الدقة والحفظ وصدق اللهجة وتخيّر للقراءات لا بد أن يصبح مشهوراً عند أهل زمانه ولاسيما أنه أخذ القراءة عن حمزة بن حبيب ومحمد بن أبي ليلى وعيسى بن عمر الهداني. وروى الحروف عن أبي بكر بن عياش رواية عاصم بن أبي النجود[4].. وقد أخذ عنه القراءة كثيرون منهم أبو عبيد القاسم بن سلام، وحفص بن عمر الدوري النحوي صاحب اليزيدي، والليث بن خالد البغدادي، ويحيى بن زياد الفراء، ويعقوب الحضرمي[5].. ثم جاء الفراء النحوي الكوفي الذي ختم به الجيل الأول من نحاة الكوفة الذين ظهروا في القرن الثاني، كما ختم هذا الجيل في البصرة بسيبويه. والفراء صديق الكسائي في تلمذته على الرؤاسي[6].. ولكنه تلميذه بعد أن ثبت له خطأ الرؤاسي في عدة مسائل[7].. قيل أن الفراء قد أتصل بيونس بن حبيب البصري الذي تصدر للتدريس في مجلس الخليل بعد موته، وأخذ النحو عنه. كذلك اتصل بسيبويه عن طريق كتابه المشهور. فقد وجد بعض هذا الكتاب تحت وسادته[8].. وقد استطاع الفراء أن يثبت دعائم المدرسة الكوفية ويعلي من شأنها، ويتعهدها ويعيد النظر في بعضها[9]..

وكان يخالف الكسائي في كثير من مسائله، لأنه كان على علم بالنحو ودراية كبيرة بقواعده، وليس أدل على ذلك من كتابه «معاني القرآن» الذي تناول فيه مسائل النحو في أثناء تفسيره للقرآن الكريم الذي يعد أساساً لكتب المتأخرين في هذا المجال. وله كتاب الحدود الذي صنفه بأمر المأمون والذي يعد الكتاب الأساس في النحو[10].. وكان أحمد بن يحيى ثعلب يقول: لولا الفراء ما كانت اللغة لأنه حصلها وضبطها ولولاه لسقطت العربية. لأنها كانت تنازع ويدعيها كل من أراد. ويتكلم الناس على مقادير قولهم وقرائحهم فتذهب[11].. فالنحو الكوفي في عهد الفراء وصل إلى مرحلة من النضج وأصبحت الكوفة تضاهي البصرة في العلم أو تزيد، إضافة إلى ذلك فكان الفراء فقيهاً عالماً بالخلاف. وبأيام العرب وأخبارها وأشعارها، عارفاً بالطب والنجوم. متكلماً يميل إلى الاعتزال، وكان يتفلسف في تصانيفه. ويستعمل فيها ألفاظ الفلسفة[12].. وكان ابن الانبارى يقول: لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس، إذ انتهت العلوم إليهما. وكان يقال للفراء أمير المؤمنين في النحو[13]..

ولذا أردنا أن نطلق اسم مدرسة على كل من البصرة والكوفة، فمدرسة البصرة ممثلة بكتاب سيبويه المتوفى سنة ١٨٠هـ ومدرسة الكوفة ممثلة بكتاب معاني القرآن للفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ أما قبل هذا وذاك فكان النحو لا يزال في دور النشوء والتكامل، وفي كتاب معاني القرآن كثير من الأمثلة النحوية التي يتفق فيها مع البصريين، فهو وإن كان إماماً للكوفيين لا يتعصب لمذهب مدينته، ينشد القواعد الصادرة التي كان مصدرها.

وخلف الفراء العبء من بعده على أشهر تلاميذ أبي عبد الله الطوال، وسلمة بن عاصم. ومحمد بن قادم[14].. الذين حملوا علمه من بعده وأذاعوه حتى أسلموه إلى ابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١هـ ثم ابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٣هـ ثم أخيراً إلى أحمد بن يحيى ثعلب المتوفى سنة ٢٩١هـ الذي يعده خاتمة نحاة الجيل الثاني من نحاة الكوفة الذين ظهروا في القرن الثالث كما يعد المبرد معاصره خاتمة هذا الجيل من نحاة البصرة قبل أن تلتقي المدرستان في مدرسة واحدة هي المدرسة البغدادية[15]. كما يسميها بعض المتقدمين والمحدثين.

ومدرسة الكوفة-كما هو معروف- تمتاز باحترام كل ما جاء عن العرب وجعله قاعدة يجوز القياس عليه حتى لو كان شاذاً لا تنطبق عليه القواعد العامة[16].. وذكر السيوطي أن الكوفيين إذا سمعوا لفظاً في شعر أو نادر من كلام جعلوه باباً أو فصلاً[17].. والأمثلة كثيرة على مذهبهم موجودة في صفحات الكتب القديمة والحديثة.

(١) معجم الأدباء ١٨٦/١- ١٨٧.
(٢) غاية النهاية ٥٣٧/١ ومدرسة الكوفة٢٦.
(٣) تهذيب التهذيب للعسلاني ٣١٤/٧.
(٤) مدرسة الكوفة ٢٦.
(٥) مدرسة الكوفة.
(٦) بغية الرعاة١/٣٣.
(٧) نزهة الالباء ٦٥.
(٨) معجم الأدباء ٢٧٦/٧ وبغية الرعاة ١/ ٤١١.
(٩) انظر المزهر ٦٥/٢ ومدرسة الكوفة ٢٧.
(١٠) تاريخ بغداد ١٤/ ١٤٩ ونزهة الالباء١٢٦.
(١١) معجم الأدباء ٧/ ٢٧٦.
(١٢) معجم الأدباء ٧/ ٢٧٦.
(١٣) نزهة الالباء ١٣٤.
(١٤) نزهة الالباء٢٠٤.
(١٥) مدرسة الكوفة٢٣.
(١٦) ضحى الإسلام ٢٩٥/٢.
(١٧) جمع الجوامع١/ ١٤٥.

وكان ثعلب مشهوراً بالحفظ والصدق وإكثار الرواية وحسن الدراية، كان ابن الأعرابي إذا شك في شيء يقول له: ما عندك يا أبا العباس في هذا، ثقة بقرارة حفظه[١].. قال عن نفسه: وابتدأت بالنظر في حدود الفراء وسني ثماني عشرة سنة، وبلغت خمساً وعشرين سنة وما بقي علي مسألة للفراء إلا وأنا أحفظها وأحفظ موضعها من الكتاب، ولم يبق شيء من كتب الفراء في هذا الوقت إلاّ وقد حفظته[٢].. ويبدو أنه كان أميل إلى كتب الفراء ومنهجه من غيره أمثال الكسائي وأبي جعفر الرؤاسي أيما إعجاب وإلا لما حفظ كل مسائل الفراء وعرف مواضعها أيضاً.

وقد انتهى علم الكوفيين إلى ابن السكيت وثعلب وكانا ثقتين ويعقوب أسنّ وأقدم موتاً وأحسن الرجلين تأليفاً، وكان ثعلب أعلمهما بالنحو. وكان يعقوب يضعف فيه[٣].. ويذكر ثعلب أنه كان يوماً عند ابن السكيت فسأله عن شيء فصاح به وكان تغلب عليه الحدة. قال، فقال لي: لا تصح والله ما سألتك إلا مستقيماً[٤]. وهذا دليل على احترام الرجل لعلم ثعلب في النحو، وفي الكوفة ثلاثة قرّاء من أعلام القراءات الذين كان آخرهم الكسائي الذي ذكرناه أخيراً، وفيها برزت مدرسة القياس في الفقه. وكان يغلب عليها الطابع الفقهي وفيها نزلت خيرة الصحابة الذين هاجروا إلى الأمصار الإسلامية من مكة والمدينة، ومنهم حفظة القرآن وحملة الحديث[٥]. فأبو عبد الرحمن السلمي المتوفى سنة ١٧٤هـ أول من قرأ في مسجد الكوفة. وقد قعد للقراء بين أربعين سنة وإليه تنتهي رياسة أكثر القراء في الكوفة. وكان قد أخذ القراءة عن الصحابة السابقين.. وعاصم بن أبي النجود أحد أعلام السبعة في القراءة المتوفى سنة ١٢٢هـ والذي انتهت إليه رياسة القراء بالكوفة بعد عبد الرحمن السلمي.. وكان يجمع بين الفصاحة والإتقان والتجويد. أخذ القراءة عن أبي عبد الرحمن وزرّ بن حبيش. ويبدو مما ذكره ابن الجزري أن أبا عبد الرحمن كان مرجعه الأول. فقد ذكر في غاية النهاية أن أبا بكر بن عياش قال، قال لي عاصم، ما أقرأني أحد حرفاً إلا أبو عبد الرحمن السلمي وكنت أرجع من عنده فأعرض على زرّ[٦]. فهو حجة في القراءات، فقد روى عنه حروفاً من القرآن أعلام اللغة كأبي عمرو بن العاص، والخليل بن أحمد، وحمزة بن حبيب[٧]..

ثم يأتي بعد عاصم حمزة بن حبيب الزيات التميمي صليبة أو ولاء (١٥٦هـ) كان إمام الناس في القراءة بعد عاصم بن أبي النجود وسليمان الأعمش. وكان مقرئاً حافظاً للحديث بصيراً بالفرائض حتى قال له أبو حنيفة يوماً: شيئان غلبتنا عليهما لسنا ننازعك فيهما: القرآن والفرائض[٨]. وكان يقول: ما قرأت حرفاً من كتاب الله إلا بأثر[٩].

مما تقدم يظهر أن الكوفة قد اختطت لنفسها منهجاً جديداً منذ أوائل القرن الثاني الهجري له طابع خاص أملته على الدراسين بيئة الكوفة ومناهج الدراسة التي نهجها القراء والمحدثون، وأخذت هذه الدراسة تنهج لنفسها سبلاً جديدة حتى تم لها الاستقلال في أواسط هذا القرن على يد حمزة بن حبيب وتلميذه الكسائي[١٠]..

أما الحياة الأدبية فلم تشهد تطوراً يذكر كتطور القراءات والنحو لأنها لم تهتم بالتأليف الأدبي اهتمام البصرة وبغداد، وتعليل هذه الظاهرة تعود إلى أن كتب الأدب-إن لم تكن كلها- مما يعتاش بها مؤلفوها إذ يهدونها إلى ذاك الأيسر، أو هذا الوالي، ويتساءل الدكتور محمد حسين الأعرجي، هل كان لانقطاع الأدباء الكوفيين عن قصور الخلفاء والولاة أثر في هذا، فيقول: ربما كان ذلك، ولكن لقائل أن يقول: لو كانت في الكوفة حركة تأليف أدبي زاخرة لفرضت نفسها على مثل هذا التقليد وتجاوزته، ويضيف، ويبقى تساؤله قائماً دون رد مقنع[١١]..

وعلى هذا فإهمال الكوفة هذا الجانب من النشاط الأدبي سيبقى قائماً. وإذ يذكر النشر الفني في البصرة. ويذكر ابن المقفع وسهل بن هارون. يطيب للكوفة أن تشير إلى كتّابها الذين تخرجوا فيها، ولكن هؤلاء قد هجروها إلى بغداد راضين بما يدر عليهم توليهم الدواوين الرسمية. فقد خرّجت الكوفة- كما يقول ابن كناسة جماعة من الكتّاب[١٢] يذكر منهم القاسم بن صبيح الذي كان يكتب لعبد الله بن علي عمّ المنصور عند قيام الدولة العباسية، وابنه يوسف الذي كان مع خاله بشر بن سليمان على ديوان الكوفة أيام بني أمية، ثم كتب لعبد الله بن علي[١٣]. وأحمد بن يوسف الذي وزر للمأمون فقيل عنه أنه من أكتب من كان في دولة بني العباس[١٤] لكن الشعر كان غالباً على حياة الكوفة. وفي النصف الثاني من القرن الأول برز شعراء يذكرون منهم النجاشي، وأعشى همدان، وعبد الله بن

(١) معجم الأدباء٢/١٤٠.
(٢) معجم الأدباء ٢/١٤٠.
(٣) معجم الأدباء٢/١٤٥.
(٤) معجم ؟؟؟ ١٤٥.
(٥) مدرسة ؟؟؟ ٢٢.
(٦) ؟؟؟١/٧٤٧ ومدرسة الكوفة ٢١.
(٧) مدرسة الكوفة ؟؟.
(٨) غاية النهاية ١/٢٦٣.
(٩) النشر١/ ١٦٦.
(١٠) مدرسة الكوفة ٣٩.
(١١) الشعر في الكوفة: ٣١.
(١٢) أخبار الشعراء ١٤٤.
(١٣) أخبار الشعراء ١٤٧.
(١٤) أخبار الشعراء ١٤٧.

الحر الجعفي، والكميت بن زيد الأسدي، والمتوكل الليثي وآخرون.. وفي القرن الثاني يلتمع اسم مسلم بن الوليد الذي قيل فيه أنه أول من وسّع البديع[1].. ووالبة بن الحباب الذي أدب أبا نؤاس. وأبي دلامة الذي اتجه إلى أدبه الشعبي معتمداً على الفكاهة والسخرية[2] ويرى الدكتور خليف أن السر في اهتمام الكوفة برواية الشعر والأخبار. لأنها تراث هذه القبائل الذي تعتز به وماضيها المجيد الذي تحرص عليه، ولأنه سجل مفاخرها وكتاب أمجادها[3].. وبطبيعة الحال لا يمكن أن نغفل الاستقرار السياسي الذي كانت تنعم به البصرة وهو استقرار هيأ للحياة العلمية أن تزدهر، فوضعت بها قواعد اللغة والنحو قبل الكوفة بقليل. بينما كان الكوفيون مشغولين فيه بالصراع السياسي والاضطرابات والفتن التي كانت جزءاً لا يتجزأ من تاريخ مدينتهم الثائرة[4]..

وبعد فهذه لمحات جانبية من الحياة العلمية في الكوفة خلال القرون الثلاثة الأولى التي عاشتها مشاركة في وضع الحضارة الإنسانية مشاركة في مختلف العلوم والمعرفة. فألف تحية لعلمائها الأفذاذ بما قدموا لأمتهم العربية الخالدة وليبق شأن العربية عالياً ما دامت الأمة باقية.

فهرس المراجع

- الأغاني: لأبي الفرج الأصبهاني-دار الثقافة- بيروت ١٩٥٥م
- أنباه الرواة: للقفطي-تحقيق أبي الفضل إبراهيم- القاهرة ١٩٥٢م
- بغية الوعاة: لجلال الدين السيوطي، تحقيق أبي الفضل إبراهيم ١٩٦٥م
- تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي- مطبعة السعادة ١٩٣١
- تاريخ الكوفة: للسيد حسين البراقي- النجف، المطبعة الحيدرية ١٣٥٦
- تهذيب التهذيب: لأبن حجر العسقلاني- مطبعة حيدر آباد، الدكن.
- حياة الشعر في الكوفة: الدكتور يوسف خليف- القاهرة م١٩٦٨
- الشعر في الكوفة: محمد حسين الأعراجي، رسالة ماجستير ١٩٧٣م
- ضحى الإسلام: أحمد أمين- القاهرة ١٩٥٢م
- طبقات الزبيدي: تحقيق أبي الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٥٤م
- طبقات الشعر لابن المعتز: تحقيق أحمد عبد الستار فراج، دار المعارف ١٩٥٦م
- غاية النهاية في طبقات الشعراء: لابن الجزري، تحقيق براجستراسر القاهرة ١٩٣٣م
- الفهرست لابن النديم، طبعة لا يبزج ١٨٧٢م.
- المدارس النحوية: الدكتورة خديجة الحديثي- بغداد ١٩٨٦م
- مدرسة الكوفة: الدكتور مهدي المخزومي- مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٢م
- المزهر في علوم اللغة: لجلال الدين السيوطي-دار إحياء الكتب- القاهرة
- معجم الأدباء: لياقوت الحموي، القاهرة ١٩٢٨م
- معجم البلدان: لياقوت الحموي-دار صادر- بيروت ١٩٥٦م
- نزهة الالباء: لابن الانباري-تحقيق د. إبراهيم السامرائي، بغداد ١٩٧٠م
- النشر في القراءات العشر: لابن الجزري. مصطفى البابي الحلبي، القاهرة
- همع الهوامع: لجلال الدين السيوطي- مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٢٧هـ
- وفيات الأعيان: لابن خلكان- تحقيق محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٨م.

* * *

(١) طبقات الشعراء ٢٣٥ وحياة الشعر في الكوفة ٢٧٢.

(٢) للإستزادة ينظر حياة الشعر في الكوفة د.يوسف خليف والشعر في الكوفة د.محمد حسين الأعرجي.

(٣) حياة الشعر في الكوفة ٢٦٠.

(٤) حياة الشعر في الكوفة ٢٦٠.